لا أريد أن أراه

في البداية لم أتبيَّن ملامح وجهه تماماً ...
ثم... ثم.. التقت عيناي بعينيه...!! كانت لحظةً
شعرت أنها دهر... فتحت فمي من الدهشة... يا
إليهي... أيمكن أن يحدث ذلك؟

لم أستطع أن أتكلم...

www.obeikandl.com

www.obeikandl.com

قال لي

رئيس التحرير:

- اليوم تأخذ معك المصور جبارة وتذهب معه إلى السجن.

فزعت وأنا أسمعه يذكر السجن وقلت:

- يا الله صباح الخير.. أرجوك يا أستاذ أحمد أنا مستعد أن أذهب إلى أي مكان إلاَّ السجن.

قال وهو لا يخفي ابتسامته:

- أنا جاد... هناك موضوعات كثيرة، (وخبطات) صحفية مثيرة تنتظرك.

رددت عليه بصيغة اعتذار:

- ولماذا أنا يا أستاذ أحمد.. أنا لم يسبق لي أن ذهبت إلى السجن.

- وأنا كذلك لم يسبق لي أن ذهبت إلى السجن. ولكنك ستمر إدارة السجن، ولديهم برنامج جولة، ولقاء بعدد من المسجونين.

قلت وأنا أحاول أن أدفع هذا الأمر عن نفسي:

- أظن الأمر لا يستحق كل هذا الاهتمام منك!

قال رئيس التحرير:

- ظننتك أجدت سر المهنة!

www.obeikandl.com

- لم أفهم ما تريد؟

- حين يسمح لك بمقابلة السجناء، يبدأ مشوار (الخبطة الصحفية) التي ستجعل ريبورتاجك مثيراً ومشوقاً، عليك أن تستفيد إلى أقصى حد ممكن من هذه الفرصة، ستجد في جعبة كثير منهم قصصاً مثيرة، أكثر إثارة من قصص الأفلام والدراما، ما عليك إلاَّ أن تحسن عرضها، وتقديمها، فتحقق كسباً صحفياً، ومعك المصور جبارة يتفنن في التقاط صور مميزة. أما مسألة الإخراج الصحفي فدعها لقسم الإخراج، وسأوصيهم بهذا الريبورتاج بصفة خاصة، لدي يقين أننا سنحقق نصراً صحفياً، وأننا سننبه إلى قضايا اجتماعية مهمة. ثم أضاف:

- أتعرف...؟ قضية الديون وحدها لو اكتفيت بها في حلقة خاصة لكانت حلقة موفقة، ثم في حلقات أخرى تتناول قضايا أخرى، ستجدها أمامك مباشرة وستراها تلحُ عليك.

لم يكن لي حيلة في الاعتذار، ولذا نزلت من فوري أبحث عن زميلي المصور جبارة ثم ركبت أنا وإياه سيارتي، واتجهنا جهة السجن العام.

كان واضحاً أن رئيس التحرير قد نسَّق مع إدارة السجن لهذه الزيارة الصحفية، وكانت براعته أكثر في إعطاء زيارتنا خصوصيَّة معينة تجعل السَّبق لنا في الصحيفة، والتكتم الشديد لكي لا يرافقنا صحفي آخر من الصحف المنافسة.

www.obeikandl.com

قلت لجبارة حين رأيته يجهز آلة التصوير:

- ترفَّق... لست حراً لتصوير ما تريد..

قال:

- أرجو أن تخدمني آلة التصوير وبخاصة أنها من نوع جديد.

رددت عليه:

- ربما نعود إلى السجن عدة مرات لأخذ موضوعات صحفية... وأذكرك مرة ثانية... أنك لست حراً في التصوير، هناك أوامر وتعليمات لا بدَّ من الالتزام بها.

قال بشجاعة:

- أنا نقطة ضعفي أن أرى منظراً مثيراً... (ثم أضاف): ومع ذلك فآلة التصوير سوف أضعها بين يدي مدير السجن، فما يراه هو الذي سوف أعود به إلى الصحيفة. ما رأيك؟

قلت له:

- لا بأس... لكن الأفضل أن تسدَّ كل باب تأتي منه الريح لكي تستريح، أليس كذلك..؟

وصلنا البوابة ثم دخلنا فناء السجن، واتجهنا مع جندي مرافق إلى مكتب مدير السجن الذي هبَّ لاستقبالنا، وقال لنا:

www.obeikandl.com

- لا أريد أن تكون الجولة داخل السجن عنصر إثارة صحفية، بل أريده أن يكون أسلوب توعية لكي لا يسير الناس في الطريق الذي ينتهي بهم إليه.

شعرت بأنه كلامه يقوِّض بنيان أحلام رئيس التحرير في الحصول على ريبورتاج مثير، لكن مدير السجن واصل حديثه:

- نحن لا نريد استثمار المشكلات.. نحن نضع أيدينا في أيديكم بشرط الاتفاق على ما يلي:

الصدق...

الاعتدال وعدم المبالغة بالعناوين، أو الصور المثيرة.

والنفع العام وهو أن يهدف التحقيق الصحفي إلى فائدة واضحة للمجتمع.

ثم سكت برهة وقال موجهاً الحديث لي وحدي:

- أنت تعرف أن السجن مكان له طبيعته الخاصة.. فلا تحرج أحداً ليذكر لك اسمه، أو لتأخذ له صورة، دع الأمور مستورة... الستر طيِّب..

قلت له وبي شوق للمرور عبر زنازين السجن:

- أنا أعدك بذلك... كل ما ذكرت سوف نلتزم به.

www.obeikandl.com

سرت أنا وجبارة واثنين من الجنود المرافقين ومضينا ننتقل في ردهات مبنى السجن، فأدركت أنه عالم خاص مختلف جداً، كنت أحسُّ بنعمة الله عليَّ أن أكون حراً، أسير كما أريد، بينما الذين هم في الزنازين يحلمون بهذا الذي أفعله كل يوم ولا يستطيعون إليه سبيلاً، بل أتذكر أنني قادر أن أخرج من السجن متى أردت، أمَّا هؤلاء فيتحرقون شوقاً ليوم يغادرون فيه بوابة السجن.

كل شيء كان يثير غريزتي الصحفية المترعة بالفضول وحب الاستكشاف قلت لمرافقي:

- وهل سنظل نمشي في هذه الممرات الطويلة.. إنها كلها تشبه بعضها شبهاً كبيراً، بل لا تكاد تختلف فيما بينها.

قال لي:

- وماذا تريد؟

قلت له:

أريد أن نتحدث الآن مع السجناء.

نظر الجندي إلى زميله وكأنه ينقل السؤال إليه، فأومأ الآخر برأسه علامة الإيجاب، ثم قال:

- لقد سمعت كلام المدير... لا أظن هناك ما يمنع..

www.openkanal.com

وما هي إلاَّ برهة إلاَّ ونحن الأربعة أنا وجبارة والجنديان في وسط مجموعة من السجناء عددهم ثمانية كل واحد قد جلس في ناحية من نواحي الزنزانة، وحين دخلنا أشرأبت الأعناق نحونا.. تركزت نظراتهم بي أنا وزميلي..

قال الجندي مخاطباً إياهم:

- هذا صحفي ومعه المصور إذا كان أحد يحب أن يتكلم معه فله ذلك، الأمر ليس واجباً... هذا متروك لكل واحد أن يقرره بنفسه.

ومضت فترة صمت قبل أن يشير إليَّ أحد السجناء أن أدنو منه. قال وكأنه تغلب على مخاوفه.

- تعال يا أستاذ.. أنا عندي لك من الوقائع والأحداث ما تشيِّب رأسك.

مضيت إليه، وجلست بجانبه، استأذنته أن أسجل الحديث؛ لأن هذا أسهل عليَّ، أقنعته بأن ذلك يعطي الحديث حرارة وحيوية.

تردد ثم قال:

- لا بأس... لكن بشرط..؟؟ لا أريد أن تذكر اسمي ولا رسمي في الصحيفة.

قلت له:

www.obeikandl.com

- لك ذلك...

وفتحت آلة التسجيل وبدأ يتحدث... ويتحدث.. كان حديثاً مثيراً في بدايته، ثم شعرت أنه يكرر ما يقول، ويعيده بشكل يفقده الإثارة، وحانت مني التفاتة إلى رجل في الركن البعيد من الزنزانة. لا أدري.. لماذا أشعر بحبل خفي يشدني إلى النظر إليه؟؟ فأغفل عن السجين الذي يتكلم... بينما لا أملّ من الالتفات بين آونة وأخرى إلى ذلك الرجل القابع بعيداً.

في البداية لم أتبيَّن ملامح وجهه تماماً... ثم ... ثم .. التقت عيناي بعينيه..!!

كانت لحظةً شعرت أنها دهر... فتحت فمي من الدهشة... يا إلهي... أيمكن أن يحدث ذلك؟

لم أستطع أن أتكلم... فيما شعر السجين الذي كنت أسجل حديثه بارتباكي فقال:

- ماذا حدث لك؟

لقد أحسست أن كل من في الزنزانة، قد رأى ما أصابني من ارتباك واضطراب.

لكني تمالكت نفسي فعدت إلى محدثي... ترتعش العبارات على لساني.. ولا أكاد أصوغ سؤالاً واحداً بطريقة مفهومة، إلى الحد الذي أثار سخط السجين وملله.

www.obeikandl.com

بينما أدار السجين الآخر ظهره وجعل وجهه ناحية الجدار..

نعم إنه هو !!! جارنا أبو منصور... ذلك الذي كان صديقاً من الأصدقاء... لكنها صداقة لم تستمر، إذ بدأت أنكر عليه تركه لأسرته فترات طويلة وسفره.. وعدم متابعة ولده وابنته في المدرسة حتى أصبح الرسوب شيئاً طبيعياً لهما بعد أن كانا متفوقين. وكلما حدثته زجرني بغلظة، كان يغير موديلات سياراته بشكل مثير فكانت لي معه أحاديث في ضرورة الاعتدال. ومع ذلك لم يقبل أي كلام مني، بيتي وبيته متلاصقان، ولذا كانت زوجته تشعر بكثير من الارتياح حين تأتي لزوجتي فتشكو حالها وحال زوجها ثم تأتي لها أحياناً بفاتورة الكهرباء أو الهاتف، وتطلب أن أسددها خشية أن تقطع الكهرباء أو حرارة الهاتف...!! فأُسارع للتسديد رحمة بها، وتخبر زوجتي بأن منزلهم خالٍ من كل مؤونة، فتقدم لها بعض المساعدة حتى عودة أبي منصور.

ويبدو أنها كانت تلومه؛ لأنه يضطرها إلى الضعف والذلة والطلب من الجيران، لكن نفسيته المعقدة لم ترض بأن يوجه له أي عتاب، مهما كان لطيفاً... أما أنا فطالما نصحته ودعوته أن يكون أباً حنوناً، وأن يعتني بمصالح أسرته، وذكرته بأنه راعٍ ومسؤول عن رعيته أمام الله تعالى. لكنه تهدّد وتوعَّد... وعدَّني أتدخل في شؤونه العائلية.

سبحان الله!! شؤونه العائلية؟؟ هكذا مرة واحدة !! وهل كان ذنبي إلا أن ساعدته وخدمته؟؟ قلت لنفسي يوماً:

www.obeikandi.com

– والله ما يستحق مني بعد الذي عمل شيئاً، ولا كلمة طيبة.. ولكن ما ذنب عائلته؟؟ وشعرت زوجته المسكينة أن هذا الوضع الصعب سيستمر، وأنه لن يتخلى عن شراسته، فاتصلت بأحد أعمامها ليأخذها إلى أهلها. وقبل ذهابها جاءت تودع زوجتي، كان وداعاً باكياً لم تستطع كلا المرأتين الحديث من كثرة العبرات والدموع. وذهبت زوجته بأبنائها إلى مدينة أخرى، حيث يوجد أهلها وعشيرتها وتركت له الدار تنعق بها البوم!!.

كان واضحاً أنَّه لم يعد شخصاً طبيعياً، بل أصبح شرساً عدوانياً، فبدأت أتحاشى أن أقابله، وكان الأمر كذلك بالنسبة للجيران الآخرين..

ولم تكن صحته وهيئته لتعجب أحداً، ثم غاب عن الحي فجأة، وطالت غيبته، وظل كل واحد يروي شيئاً عن أسباب غيبته، كنت أخشى من شيء واحد، ولم أكن أستطيع أن أجهر به، بل كنت أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وأقول لا.. لا يمكن أن يحصل هذا إن شاء الله.

ولكني حين رأيته في السجن.. تأكد لي ما كنت أظنه.. لقد كان يتعاطى المخدرات.. وأفقت من شرودي، والسجين الذي بدأت الحديث معه يقول بعفوية:

– أنت سارح.. أنت لست معي.. المسجل خلص الشريط، ويحتاج أن تقلبه على الوجه الآخر..

www.obeikandl.com

قلت: لا داعي.. الذي قلت فيه بركة... فيه بركة..

وسألت الجندي عن زميلي جبارة والجندي الآخر فقال:

- لقد ذهب زميلك مع الجندي الآخر، لديه أمكنة يسمح له فيها بالتقاط الصور.

وهممت بالنهوض لكن السجين أمسك بيدي، وقال وهو يشير إلى جاري القديم:

- إذا أردت العجائب فاسمعها من (أبو منصور). (وأضاف) ترى عنده (أعلوم) تصلح للصحافة، اذهب إليه وستعرف ذلك منه.

كادت تسيخ قدماي بي منذ رأيته، فكيف أذهب إليه، لا.. لا... تكفيه هذه الفضيحة، ويكفيه هذا الموقف المترع بالذلة والصغار، لا أريد أن يشعر أنني أشمت به... لا أريد ذلك أبداً، كنت أعرف أنه - وإن أدار ظهره نحونا - فإنه يصغي لأحاديثنا كل الإصغاء. وقمت من فوري، وأنا أدعو بالفرج لهذا السجين ولجميع السجناء.

- الله يعجل فرجكم.. الله يعجل فرجكم.

والسجين يردد:

- آمين ... آمين .. الله يستجيب منك.

أما أبو منصور جاري وصديقي القديم فقد خرجت ووجهه للجدار، لا يكاد يلتفت نحوي، ولعله لن يلتفت حتى يتأكد من خروجي تماماً من السجن كله، وليس من هذه الزنزانة وحدها.

www.obeikandi.com

ولم أجد لديَّ أي رغبة في متابعة الجولة، وحين رأيت زميلي المصور جبارة وجدته سعيداً بكمية الصور التي سمح له أن يلتقطها، كان يتوقع أننا ما زلنا في بداية الجولة الصحفية، غير أني فاجأته بقولي:

- لقد انتهى التحقيق الصحفي.

رد بدهشة:

- ولكن بقيت أشياء كثيرة.

قلت له بكل حزم، وأنا أداري مشاعري خشية أن يرى ما حدث لي من تأثر:

- الذي رأينا فيه كفاية... فيه كفاية يا جبارة..!!

www.obeikandl.com